كيف يصبح المرء مستشرقاً؟

محاورة مع أندريه ميكل (٢-٢)

ترجمة : حسين عجة

× بيد أن الأشياء سرعان ما أخذت مسلكاً آخر : لقد اصطدم خط بيانك الحياتي بما لم يكن على الحسبان، أي العنف والاعتقال...

– اندريه ميكل : لقد وصلت إلى مصر في سبتمبر ١٩٦١، وفي نوفمبر من العام نفسه تمّ استدعائي من قبل البوليس. لقد وقعت أنا وبضعة من الفرنسيين بين أيدي ما يسمى الخدمات الخاصة. اتهمونا بالتجسس. من العبث أن أقول الآن بأن ذلك الاتهام لم يكن يستند إلى أي شيء ولا معنى له. لقد أمضيت ثماني وأربعين ساعة وأنا معصوب العينين، ومن دون معرفة أين كنت، ولا معرفة ما الذي سيفعلونه بنا. لقد استمرت التحقيقات، التي يمكن القول عنها بأنها كانت "مفتولة العضلات" لمدة أثني عشر يوماً. بعد ذلك، كان علينا انتظار المحاكمة، ثم الاعتقال والحبس لمدة ما يقارب الخمسة شهور، من نوفمبر ١٩٦١ إلى أبريل ١٩٦٢. خمسة أشهر لم تتمكن فيها الدولة الفرنسية من إخراجنا من هناك. أثناء ذلك، كانت الحرب الجزائرية قد وضعت أوزارها، ضمن أفق الاتفاقيات التي دشنتها معاهدة "أفيون"، ومن ثم إقامة علاقة جديدة مع البلدان العربية. في النهاية، أوقف عبد الناصر المحاكمة وتمت إعادتي إلى بلدي. لم تطالب فرنسا بتعويضات عن ذلك، عندما رجعت العلاقات الدبلوماسية إلى وضعها السابق.

× أتخيل بأن تلك التجربة كانت بالنسبة لك بمثابة انعطاف، ذكرى يصعب نسيانها...

– اندريه ميكل : أجل، لقد مرت عليَّ أعوام كنت اقفز فيها من نومي في الليل، لأنهم كانوا اقتلعوا بابي برفسات من أقدامهم... لكن، من جانب آخر، كانت تلك التجربة قد أيقظت وعيي. يدفع السجن المرء نحو التأمل، فأثناء الخمسة شهور تلك أتيح لي وقت كاف لكي أقول في نفسي بأن أفضل المهن هي البحث والكتابة. فبعد عودتي من القاهرة، كانت الأشياء غاية في الوضوح بالنسبة لي، وانطلاقاً من تلك اللحظة تواصلت سيرتي الجامعية بطريقة كلاسيكية : أمضيت عامين في جامعة "أكس" Aix، بعدها، أي من ١٩٦٤ وحتى ١٩٦٨ التحقت بالقطاع السادس التابع للمدرسة العملية للدراسات العليا، التي أصبحت في ما بعد المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية.

×لقد كانت مرحلة بحوثك على مستوى الدكتوراه. لكنك، بدءاً من الآن، تخليت عن "السينما المصرية" لكي تتفرغ لجغرافيات القرون الوسطى

– اندريه ميكل : نعم، لقد غيرت الموضوع. لقد كرست أطروحتي الإضافية (١٩٦٣) لدراسة عن الجغرافيا العربية – التوزيع الأفضل لدراسة المدن للمقدسي – وذلك أثناء عملي على نص يعود للقرن السادس. أما في ما يتعلق بأطروحتي الرئيسية (١٩٦٧)، فقد تابعت بحثي ضمن ذلك الميدان الجغرافي الإنساني الشاسع للعالم الإسلامي وحتى منتصف القرن الحادي عشر. لقد كان السؤال المطروح هو : كيف يمكن تحديد مكانة خطاب الجغرافيين في الأدب العربي للعصر الوسيط، وكيف يمكن تأويله؟ لم يكن كتابي المعنون الجغرافية والجغرافية الإنسانية في الأدب العربي، منذ الأصول وحتى عام ١٠٥٠ سوى اللحظة الأولى من استقصاء طويل لكل صور الحياة، العمل، وطبيعة المجتمع الذي عبرته كتابة الجغرافيين. أعقب ذلك، ثلاثة كتب : "تصور الأرض والغريب" في ١٩٧٥، ثم "الوسط الطبيعي" عام ١٩٨٠، و"الأعمال والأيام" عام ١٩٨٨. في العمق، كان ذلك البحث متواصل على طول خمسة وعشرين عاماً. أما في ما يتعلق بالدراسات العربية، فمما لا شك فيه هنا يكمن ثقل الجاذبية لعملي وجوهر مساهمتي.

× في عام ١٩٦٨، بدأ عملك بالحصول على اعتراف واسع من قبل الجمهور. إذ قامت دار نشر "آرموند كولون"، ضمن سلسلة "مصير العالم"، بنشر كتابك "الإسلام وحضارته" (من القرن السابع حتى القرن العشرين): لقد حظي هذا الكتاب باهتمام ملحوظ، واستقبلته الإكاديمية الفرنسية أيضاً بأكاليل الورد؛ لكنك بدلاً من أن تتمتع بتلك الشهرة، ذهبت لكي تدرس في جامعة في طور التكوين وفقيرة إلا وهي جامعة فنسان Vincennes...

– أندريه ميكل : آه نعم، على جبهة القتال! ففيها عثرت ثانية على صديقي القديم فوكو، وبقيت أدرس فيها لعامين. بعدها، أي ما بين عامي ١٩٧٠–١٩٧٦، درست في جامعة باريس ٣، سونسيه، قبل أن يتم تعييني، عام ١٩٧٦، أستاذاً محاضراً في الإكاديمية الفرنسية حيث بقيت حتى عام ١٩٩٧، بالإضافة إلى تكليفات أخرى : المكتبة الوطنية التي كنت أشغل فيها منصب المدير العام من عام ١٩٨٤ وحتى ١٩٨٧، ومديراً للكولج دي فرنس ما بين ١٩٩١–١٩٩٧. ومع مواصلتي لمحاضراتي، بطبيعة الحال.

× وباستمرارك بنشر كمية مذهلة من الدراسات والأعمال: ما يناهز العشرين كتابين ما بين عاميه ١٩٧٦ و١٩٩٧، مُضافاً إليها أكثر من عشرة كتب منذ ذلك التاريخ حتى اليوم. هل كانت الإنعطافة الحاسمة قد حدثت بعد عودتك من القاهرة؟ وكيف؟

– أندريه ميكل : عندما عدت إلى مدينة "أيكس" حباني الحظ بلقاء عظيم، ألا وهو لقائي بجورج دبي Georges Duby الذي جعلني أدرك وأقول له كل ما كنت راغباً في القيام به : أن أكون باحثاً، و"أكتب" اثناء البحث، وكذلك إيصال كشوفاتي إلى الطلاب والجمهور، أي التحويل. وكان ذلك هو القضية الجوهرية التي يهتم بها دبي نفسه. من الصحيح القول أنه قد نشأ بيننا، في تلك اللحظة، اتفاق عميق. كان السؤال الذي طرحناه هو : لمنْ نكتب؟ هناك، بطبيعة الحال، المقالات العلمية التي تتوجه نحو الإختصاصيين، وذلك هو واجب المهنة. لكن هناك أيضاً – وهذا أمر أساسي– الكتب التي تتوجه نحو جميع القراء : هنا، كنت أرغب، كصديقي دبي، في أن أكون واضحاً، شفافاً بالقدر الذي تتيحه لي اللغة : بالمعنى الأفضل للكلمة، أن أكون "أدبياً" بالقدر الذي يمكن أن يكون عليه المرء علمياً.

× لكنكَ أيضاً مؤلف لعشرين كتابا من السرديات، الروايات والدواوين الشعرية. فنحن ما زلنا نتذكر صدور روايتك "الخيط المنقطع"، عن دار نشر فلامريون، في ١٩٧١، وكذلك كتاب "ليلى، عقلي"، في ١٩٨٤، عن دار نشر "سيّ"، ثم أسطورة "تريستيان واسولت" المُنقحة، ومنذ فترة قريبة "لنكدوت والطفولة"... في العمق، عمل أدبي قائم بحد ذاته، ويُعتد به. عمل يشمل الحياة، الحب، الموت الذي يعطي نفسه كامتداد للعمل العلمي : على سبيل المثال، تحليل وإعادة كتابة الأسطورة العشقية...

– أندريه ميكل : نعم. لكن، وبالدقة، لا تُناقض تجربة الكتابة الأدبية عندي تجربة البحث. لا من جانب أداة التعبير، ولا في ما يتعلق بموضوع البحث حتى. لأنه في عملي على الجغرافيين العرب، كنتُ اتساءل، في العمق، إذا ما كانت أعمالهم تنتمي إلى ميدان العلم أو ميدان الأدب، وبتساؤلي عن ثقافتهم والرؤية التي كان يحملها عن العالم أولئك "المسلمون العاديون" والذين هم جغرافيون، أي فيما كنتُ أترجم تلك النصوص وأواصل عملي حول هذه الذهنيات، المهتمة بالحياة والمشاغل اليومية، أثناء كل ذلك، كنتُ أجد نفسي أمام السؤال الآتي : ما هو تصور الواقع؟ ما الذي يعنيه الجبل، الحد، المدينة، البحر، المرأة، العمل في الحقول؟ والحالة هذه، ما دام السؤال يتعلق بالتصور، كيف يمكن للمرء التغافل عن التعبير، اللغة والطريقة التي تتشكل بها تلك الصور؟ العلم والأدب لا ينفصلان عن بعضهما.

× ماعدا أولئك الجغرافيين، لقد ضاعفت الهجمات أو التجولات ضمن ميادين أخرى من التمثل الأدبي : الشعر، لاسيما الشعر العشقي، المجنون Majnûn، جنون الحب، وكذلك المناظر الطبيعية، وحتى علم الحيوانات، شكل الدب في الثقافة الإسلامية، مثلاً... لماذا الدب؟

– أندريه ميكل : أجل، أنا أتعاطف كثيراً مع هذا الحيوان، وكنت أرغب في معرفة كيف يراه الإسلام. كما سمحتُ لنفسي بالقيام بهجمة داخل أدب الحروب الصليبية، برفقة ذلك السوري النبيل والرائع أسامة أبن منقذ Usâma Ibn Munqidh الذي كتبت عنه كتاب "ذكريات" الذي طُبعَ في المطبعة الوطنية عام ١٩٨٣. كما قمت بانعطافة من حول سورة الواقعة في القرآن، التي ترجمتها إكراماً لأوديل جاكوب، عام ١٩٩٢. هناك أيضاً ألف ليلة وليلة، بطبيعة الحال، التي تذكرت بأني كنتُ، قبل أكثر من ثلاثين عاماً، قد شرعت بترجمة وتحليل واحدة من حكاياتها "غريب عجيب" Gharîb et Ajîb، التي صدرت عن دار فلامريون، ومن ثم سبع حكايات أخرى نشرتها دار سندباد في عام ١٩٨١، إلى جانب "سيدات بغداد" Dames de Baghdad، في ١٩٩٠. لقد كان ذلك المشروع العظيم بالإشتراك مع ابن الشيخ والذي صدرَ عن دار غاليمار، فوليو، في وقتها، والآن في البلياد Pléiade كامتداد له. في البدء، كان ما يثير اهتمامي هو معرفة إذا ما كانت حكايات ألف ليلة وليلة تتطابق مع التحليل المرفولوجي لبروب Propp ونظريته عن الوظائف. في الحقيقة، تظهر حكاية غريب عجيب ملامح تفردات عظيمة. ما صعقني في تلك الحكاية، قبل أي شيء آخر، هو التعقيد الاستثنائي الذي تتطور عبره الوظائف : تجعلنا تلك الحكاية نهبط إلى ثمانية أو تسعة مستويات من الكتابة، يعثر السرد بعدها ثانية على المخطط الأول للوظائف، ويقوم بضم المسافة الزمانية للحوادث التي جرت اثناء ذلك ضمن التاريخ. ثمة من ملح آخر لتلك الحكايات الأصيلة، إلا وهو وجود شيء ما في الخلف، رسالة مخبأةً تضفي على القصصَ الأكثر خفةً نوعاً من الجدية التي لا شك فيها : جدال إتيكي عظيم، تأمل سياسي، فوران طبقة اجتماعية، حث العرب على إستعادة تاريخهم الخاص...

اضاءات

معرض أربيل*

جابر أحمد عصفور

عندما هبطت الطائرة بنا في مطار أربيل في شمال العراق لم أكن أتوقع ما رأيته بعد ذلك، خصوصا أن هذه كانت هي المرة الأولى التي أرى فيها إقليم كردستان. وبمجرد خروجي من الطائرة أحسست بصدري يتنفس في حرية، فنحن في منطقة أعلى من سطح البحر بكثير، ولذلك أراح صدري من تلوث القاهرة التي ضربت رقما قياسيا في درجة تلوث الهواء. ففتحت رئتي على مصراعيها لاستنشاق الهواء النقي الذي تعلو فيه نسبة الأوكسجين.

كنا وفدا عربيا من فلسطين ومصر ولبنان جئنا تلبية لدعوة كريمة لحضور افتتاح معرض للكتاب العربي في مدينة أربيل، عاصمة إقليم كردستان. وألقيت كلمة بالنيابة عن الوفد في حفل الافتتاح، وبعد أن انتهت المراسيم، قمنا بجولة قصيرة مع رئيس وزراء إقليم كردستان، ثم أخذت أتجول بمفردي في المعرض الضخم، ولاحظت الإقبال الهائل على الكتاب العربي الممثل لكل الأقطار العربية، وهو أمر جعلني أتيقن مرة أخرى من أهمية الكتاب وحضوره اللذين لم يتأثرا بأدوات الاتصال الحديثة. وأذكر أنني استمعت إلى محاضرة في مكتبة الإسكندرية، منذ سنوات، ألقاها أمبرتو إيكو أبرز علماء السميوطيقا في عالمنا المعاصر، وواحد من أشهر كتاب الرواية العالميين، خصوصا بعد أن أخرجت السينما روايته "اسم الوردة" في الفيلم الذي قام ببطولته الممثل العالمي شين كونري. وكان إيكو يتحدث عن مستقبل الكتاب الورقي في زمن النت، وغيره من وسائل الاتصال الأحدث، ومنها الـ IPad الذي يمكن أن يستوعب خمسين ألف كتاب، فضلا عن مئات الأفلام، وآلاف التسجيلات الموسيقية، في مساحة صغيرة لا تزيد على حجم كتاب. وقد وضع إيكو سيناريوهات كثيرة لمستقبل الكتاب، ولكنه انتهى إلى تأكيد أهميته، وأنه سيظل باقيا على عرشه لعقود عديدة. وقد تأكدت من هذه الحقيقة في معرض أربيل، فالزحام الهائل على دور العرض والإقبال الشديد على شراء الكتب يؤكدان أن الكتاب العربي باق على عرشه، كما يؤكدان في الوقت نفسه حماسة الإقبال عليه، في إقليم لغته الرسمية الكردية.

فرغم أن الكردية هي لغة الحياة الرسمية في كردستان، فإن الأدب العربي لا يزال له جاذبيته للقراءة. ولا يزال للكتاب العربي حضوره الأول في المعرض. وكان من الطبيعي أن أتوقف عند دار عرض متخصصة في النشر باللغة الكردية، واستعنت على قراءة نماذج عديدة من العناوين، فأصبت بالدهشة، لأن كثيرا من الآداب العالمية مترجمة إلى اللغة الكردية، وذلك إلى جانب الكتب الفكرية الأساسية. ووجدت كثيرا من الإبداعات الكردية المنشورة موزعة على الشعر والقصة والمسرح، فضلا عن النقد الأدبي. وأذكر أنني شخصيا اهتممت بترجمة الأدب الكردي، ونشرت عددا من دواوين أكبر شاعر كردي، وللأسف لم أستطع أن أقابله لضيق الوقت، فهو لم يكن في أربيل أثناء إقامة المعرض، ولذلك عدت إلى القاهرة دون أن أراه أو أرى غيره من الكرد الذين يكتبون بالكردية وحدها أو من ذوي اللسانين: العربي والكردي.

× عن جريدة الاتحاد
الخميس ١٩ أبريل ٢٠١٢

تأويل

إلى عَلي احَمّد سَعِيد (أدونيس)

علي لفتة سعيد

أتذكرُ..
طفولَتَنا
أنا وأنتَ
حينَ كانَ لَهيبُ الغُربةِ لهُ ذؤاباتِ
احْتراقِ النَخيلِ
أتذكرُ..
يومَ ركَضْنا على الماءِ..لَهَوْنا
وضَحكنا وبَكَيْنا
وكنّا نَضْربُ الغَيْمَ بأظْفرِ الوسطى
الهاربِ بِقوّةٍ من انْحنَاءَةِ الإبْهامِ
عَليه
لَعلّنا نَسْمَعُ صَوْتَ الماءِ
أتذكرُ...
حينَ ركَضْنا
لسَعتْنا وُجُوهُ أمّهاتنا
لا نذْكُرُ منْهُنَّ سَوى الأسْماءِ
كانَ الطيرُ يَعْصرُ لنا خَمْراً
فَيُطْعمُنا أغْنَية
لها شَعْرٌ طَويلٌ
أتذكرُ..

حينَ عُدْنا إلى الشاطئِ
كانَتْ ملابسُنا تَطيرُ كَما المَلائِكَةُ
كُنّا جُنوداً
نَضعُ أسْلحَتَنا في جيوبِ قُمْصانِنا
لنَكْتُبَ نَشيدَ الحياةِ
أَتذكرُ..
حينَ جَلَسْنا مع المُتَنَبّي
سَألْناهُ في حينِها
إنْ كانتُ الخُيولُ والبيدُ واللّيالي لم
تَزَل تعرفُهُ
وقَبْلَ أنْ يَنْتَهي من آخرِ كأسٍ للتأمّلِ
غادَرَنا
ذاك أثَرٌ
أَثَرُنا
أسْماؤُنا المتشابِهَةُ
لكنَّ أبي لا يُشْبِهُ أباكَ
أنا بَقَيْتُ عَليه
حقلُ حنطةٍ إلْتَفَتَ اللهُ إليهِ
وأنْتَ غادَرْتَهُ
وبيدِكَ عُشْبَةَ الخُلودْ

بعد صدور حكم قضائي بحقه

مثقفون يعلنون تضامنهم مع النجم عادل إمام

المدى / رويترز

أثار صدور حكم قضائي بحق النجم المصري عادل إمام، والقاضي بحبسه ثلاثة أشهر بتهمة الإساءة للإسلام في بعض أعماله السينمائية والمسرحية دهشة وإدانة المثقفين في كل مكان.

فقد أبدت نقابة الممثلين دهشتها من الحكم نظراً لأن الأعمال الفنية تحصل على ترخيص من الرقابة قبل تنفيذها وبعد الانتهاء منها أيضا.

وأعلنت جبهة الإبداع المصرية تضامنها مع إمام، واصفة التهم الموجهة إليه بأنها "مرسلة" وشددت على أن الفن والدين لا يتعارضان وأن الحكم على الأعمال الإبداعية "يجب أن يتم من قبل أهل التخصص بعد أن تتم الإحاطة بكل مكوناتها.. نزع أي جزء من مكونات الأعمال الفنية من سياقه والحكم عليه منفردا يعتبر إخلالا بها".

والجبهة – التي تشكلت كتجمع لمثقفين وفنانين بعد حصول أحزاب إسلامية على أغلبية مقاعد البرلمان – شددت في بيان على أن "للقضاء المصري كل التقدير والاحترام" ولكنها قالت إن الحكم بحبس إمام "بدعوى ازدرائه للأديان خروج عن السياق العام الذي تحياه الأوطان واعتداء على حريات كفلتها للإنسان كافة الشرائع السماوية والدساتير الإنسانية".

وقالت الجبهة -التي تضم محمد سلماوي رئيس اتحاد كتاب مصر والمخرج السينمائي خالد يوسف وكاتب السيناريو مدحت العدل- إنها تتضامن مع إمام واعتبرت الحكم بحبسه "تربصا واجتزاءً (في قراءة الأعمال الفنية) لصرف أنظار المبدعين عن قضايا أمتهم المصيرية".

وأضافت أنها ستعمل على تصعيد القضية قانونيا في الداخل والخارج.

واستنكرت الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان – وهي مؤسسة قانونية حقوقية – الحكم واعتبرته "ضربة موجعة لحرية التعبير وحرية الإبداع، ويفتح الباب أمام المحتسبين لرفع المزيد من قضايا الحسبة الدينية والسياسية".

وقالت في بيان إن القانون المصري يحدد الطرق التي تمر بها الأعمال الفنية التي تحصل على تصريح من الرقابة و"ليس من المنطق أن يعاقب القضاء... برغم مرورها بكل تلك المراحل".

وفي موقع تويتر تساءل المحامي والنشط المصري نجاد البرعي قائلا: إذا كان إمام قد حبس "عن مجمل أعماله التي سبق تكريمه عنها لأنها ضد الإرهاب، فمتى يحبس القضاء وحيد حامد لتأليفه مسلسل (الجماعة) الذي تناول جوانب من تاريخ جماعة الإخوان المسلمين ومؤسسها حسن البنا (١٩٠٦- ١٩٤٩) وعرض قبل اندلاع الاحتجاجات الشعبية التي أنهت حكم الرئيس السابق حسني مبارك في فبراير/ شباط".

وكانت محكمة مصرية قد أيدت أمس الأول حكما سابقا بحبس الممثل المصري عادل إمام ثلاثة أشهر بتهمة الإساءة للإسلام في بعض أعماله السينمائية والمسرحية وأثار الحكم دهشة مثقفين مصريين أعلنوا تضامنهم معه.

وقضت محكمة جنح الهرم بتأييد حكم صادر في فبراير/ شباط الماضي بحبس إمام بتهمة الإساءة للإسلام في أفلام منها (الإرهاب والكباب) و(طيور الظلام) و(الإرهابي) و(حسن ومرقص) ومسرحية (الزعيم).